رحلة الحجاز

لمؤلفه الدكتور/ عبدالغني شهبندر

إعداد الدكتور / عايض بن خزّام الروقي
قسم التاريخ - جامعة أم القرى

تقول: رَحَلَ رَحْلاً ورَحيلاً وتَرْحَالاً عن المكان : تركه، وإلى المكان : انتقل إليه، وإلى البلاد : طافها وتنقل فيها ، والرُّحْلَة بضم الراء: الجهة التي يقصدها المسافر ، والرِّحْلة : بكسر الراء الارتحال ، وهي قصة المسافر عمّا جرى له في سفره.

ورحلات الرحالة تشكل مصدرًا مهمًا في التاريخ، تبعًا لمكانة الرحلة وصاحبها ومستواه الفكري والثقافي، وتزداد أهمية هذا النوع من المعارف عندما يكون صاحب الرحلة قريبًا من مصدر الحدث وصناع الأحداث، وتزداد الأهمية إذا كان صاحب الرحلة ذا حس ثقافي متميز، وله حس تاريخي في الطرح والتعليل.

من هنا نجد أن كتب الرحلات في مجملها تشكل رافدًا علميًا للأحداث التاريخية، ومن ثم فإن المؤرخ يحتاج إلى معرفة فكر الرحالة وآرائه وأطروحاته، ليتم عندئذ معرفة محتويات هذه الرحلة، ومدى فائدتها التاريخية للأخذ منها أو طرحها جانبًا.

والكتاب الذي سنقدم له مراجعة تاريخية في هذا العدد من مجلة الدارة هو كتاب «رحلة الحجاز» ، بقلم الدكتور عبدالغني

شهبندر المتخصص طبيًا في الأمراض الصدرية، والكتاب يقع في مئة صفحة إضافة إلى أربع صفحات استهلال للكتاب، وحجم الصفحة الواحدة من الكتاب (١٥×٢٣سم)، وتشتمل هذه الصفحات على ثلاث عشرة صورة فوتغرافية تمثل أكثر من إحدى عشرة صفحة من صفحات الكتاب.

والكتاب عبارة عن ذكريات شبه يومية دونها الطبيب العربي عبدالغني شهبندر عن رحلته التي قام بها لأداء فريضة الحجِ سنة ١٣٥٤هـ/أوائل عام ١٩٣٦م، بصفته طبيبًا صحيًا وممثلاً للمفوضية العليا في مراقبة صحة الحجاج منذ سفرهم من بيروت بطريق البحر إلى مكة المكرمة ذهابًا وإيابًا.

والكتاب يقع في مئة صفحة، وهو عبارة عن مقال صحفي نشر أول مرة في مجلة الحكمة البيروتية سنة ١٩٣٧م/١٣٥٦هـ، وهو يمثل ذكريات شبه يومية دونها الطبيب المذكور عن مشاهداته وآرائه، وقد حاول أن يصف طريق الحاج ومعالم الحجاز وأهم بلدانه، وأن يتحدث عن الأمراض وعن المجتمع وعاداته، كما حاول أن يصف النسك الذي يجب أن يقوم به الحاج عند تأديته الفريضة.

وقد نشر الكتاب في البداية على شكل مقالات في مجلة الحكمة التي أنشأها صاحب الرحلة في بيروت، ومن ثم طبع على شكل كتاب بناءً على رغبات أصدقائه، وبدأ الكتاب بكلمة استهلال وتقريض من الجنرال الدكتور مارتن مدير الصحة والإسعاف في المفوضية العليا التي كتبت باللغة العربية في صفحتين ومثلها باللغة الفرنسية، ثم مقدمة صاحب الرحلة في صفحة واحدة، ومن ثم الرحلة التي هي عبارة عن انطباعات يومية برزت فيها شخصيته الطبية أكثر من أي شيء آخر، لذا

كانت الأخطاء اللغوية فيها تكاد تكون مدركة بصورة واضحة.

وفي الكتاب إحدى عشرة صورة فوتغرافية تحتل إحدى عشرة صفحة من صفحات الكتاب، وهذه الصور أُخِذَت للمواقع الآتية :

١- منظر عام للمحجر الصحي في بيروت.

٢- مسجد المحجر الصحي في بيروت.

٣- المسجد النبوي الشريف والقبة النبوية الخضراء.

٤- الروضة الشريفة وفيها المنبر والمكبرية .

٥- بناية إدارة الشرطة بالمدينة المنورة.

٦- جبل أحد وقبر سيدنا حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة المنورة.

٧- الحجاج عند خروجهم من باب المدينة المنورة بعد انتهاء زيارتهم لها.

٨- منظر الحرم المكي والأبنية المحيطة به.

٩- منظر الكعبة المشرفة.

١٠- منظر الكعبة المشرفة بعد الكسوة.

١١- مستشفى المحجر الصحي في بيروت.

وقد اعتمد صاحب الرحلة في كثير من الصفحات على النقل الحرفي من كتاب : عبدالقدوس الأنصاري " آثار المدينة المنورة " ، وكتاب الأمير شكيب أرسلان " الارتسامات اللطاف " . وعندما تحدث عن مكة المكرمة وعن الحرم الشريف أخذ عن ياقوت الحموي في كتابه " معجم البلدان " ، كما اعتمد على المسعودي عندما تحدث عن بئر زمزم ومائها ونشأتها.

وفي ست صفحات من الكتاب نقل صاحب الرحلة تلك الرسالتين اللتين نشرهما بالفرنسية والتركية الدكتور قاسم بك أبو عز الدين عن الأمراض والأوبئة والوفيات في مكة المكرمة في فترات تاريخية متقدمة، وهاتان الرسالتان تمثلان تقريرًا طبيًا سبق أن نشر في مجلة المقتطف كما يقول صاحب الرحلة، لكنه أعاد نشره نصًا للفائدة العلمية كما يعتقد وكما قال.

ولم يكن صاحب الرحلة دقيقًا عندما دون خطاب الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الذي ألقاه في الحفل التكريمي المقام لحجاج بيت الله الحرام في القصر الملكي بمكة المكرمة في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ/مارس ١٩٣٦م، علمًا أن الخطاب قد نشر بنصه في الصحيفة الرسمية للدولة - أم القرى - في عددها الصادر يوم ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ، ولو أخذ عنها لكان أكثر دقة ووضوحًا لا سيما أنها لسان الدولة المنشور.

وفي آخر الكتاب وفي أربع صفحات كاملة أورد صاحب الرحلة، نص المنشور المعلن من قبل الحكومة السعودية للحجاج، ولحج عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م، وهي ملحوظة طريفة لا يُعرف غرض الكاتب من ورائها؛ لأن هذا المنشور جاء في السنة التالية لرحلته، وعندما نُشِر لم يكن صاحب الرحلة في الحجاز كما يفهم من سياق مسار الرحلة، ولعله أراد إبراز أشياء لم يتعرف عليها في أثناء رحلته السالفة الذكر، أو هو عرفها أو قيلت له بعد عودته.

إن هذا الكتاب يفتقد الدقة في كثير من موضوعاته التي تناولها، فأسماء الأمكنة التي ذكرها يشوبها كثير من التحريف والتصحيف، ولعل له في ذلك عذرًا بحكم تخصصه الذي لم

يساعده في تصحيح الأسماء والمواقع، بيد أن هناك موضوعًا مهمًا جدًا في صفحات الكتاب لم يوفق صاحب الرحلة إلى إعطائه حقه، بوصفه رجلاً معاصرًا للأحداث التاريخية، وصناع الأحداث أنفسهم، وهو يدرك بحكم ثقافته العلمية أهمية هذه الأحداث التاريخية، والمفهومات التي يجب أن تدون وتنشر من رجل شاهد على تلك المرحلة، لكنه للأسف الشديد جانب الحقيقة، وربما سار مع العاطفة أكثر مما يجب، وليس له عذر في ذلك مهما حاولنا أن نوجد له العذر.

وما يقال عن عدم الدقة في الموضوعات التاريخية والجغرافية يقال عن الموضوعات العقدية، ومنهج أهل السنة والجماعة الذي كان من الواجب على صاحب الرحلة أن يأخذ به في تدوين رحلته، فهو يتكلم عن الولي وعن التبرك بالآثار والقبور وعن المقامات المباركة وعن الأدعية ونحو ذلك.

أما إذا أردنا أن ننظر إلى الجوانب التاريخية ودقة صاحب الرحلة في ما يمكن أن نسميه أدب الرحلة كإضافة معلومة تاريخية دقيقة من شاهِد عصر شَاهَد الحدث ودوَّنه وحلله أو علله فإن هذا الجانب يكاد يكون موجودًا لكنه بنسبة ضئيلة، ولعل عاطفة صاحب الرحلة وتخصصه الطبي أثَّرا فيه كثيرًا، من هنا نرى أن الكتاب غلب عليه الأسلوب الصحفي العادي جدًا، ولا سيما عندما يتحدث عن سير الرحلة ومشاهداته اليومية والوقائع التي تصادفه في رحلته.

والحقيقة التي لا تقبل الجدل أن القارئ المتخصص لهذا الكتاب يجد فيه من السلبيات العلمية الشيء الكثير، فله أفكار وأطروحات غريبة، ولديه أخطاء علمية لا يمكن أن تفوت على مثل صاحب الرحلة، وبعض المعلومات التاريخية التي كانت

معروفة ومعلنة في المملكة العربية السعودية اعتراها الكثير من عدم الدقة في إيراد المعلومة، في حين هي أهم عناصر هذه الرحلة في تلك المرحلة التاريخية، ومثال ذلك إشارته إلى المملكة العربية السعودية أكثر من مرة باسم حكومة الحجاز، على الرغم من أن هذه الرحلة تمت بعد توحيد المملكة العربية السعودية بأكثر من ثلاث سنوات.

وكذلك إشارته إلى أن وزير الخارجية - في الحجاز هكذا قال - هو فؤاد حمزة، والمعروف تاريخيًا أن وزير خارجية المملكة العربية السعودية آنذاك هو الأمير فيصل بن عبدالعزيز الذي عُيّن وزيرًا لها منذ عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م ؛ أي: قبل قدوم هذا الكاتب بنحو ست سنوات...؟!

وهناك مع الأسف الشديد بعض الإشارات والهمزات التي لجأ إليها المؤلف عند حديثه عن بعض المواقف التي مرت به في المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو في غنى عنها، لا سيما وهو يتحدث عن حسن الاستقبال والإكرام الذي قوبل به، وإشاراته تلك تفتقد إلى الحقيقة العلمية، وإلى الدليل الواضح على تأكيد ما ذهب إليه، ولعلها تكون شطحات قلم، أو إساءة فهم...

ومع كل هذه السلبيات التي استعرضناها فيما سبق فإن هذا الكتاب فيه ومضات جيدة تجعل منه بحكم المعاصرة لتلك المرحلة كتاب مذكرات شخصية فيه بعض الانطباعات الحميدة، وبعض الأحكام الإيجابية التي تعد من إيجابياته العلمية، إذ أورد على خمس صفحات نصائح طبية بحكم تخصصه، نشرتها وزارة الصحة السعودية حينذاك وأعلنتها للحجاج في تلك السنة.

وقد سجل المؤلف انطباعه الحقيقي والمقبول بحكم المشاهدة والمعايشة في أكثر من موقع، حيث أثنى على خطبة الجمعة

وخطيبها، وشكر المسؤولين السعوديين على حرصهم على تأدية الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع التدخين والملاهي في المدينتين المقدستين بصفة خاصة، وفي أنحاء البلاد بصفة عامة.

وفي آخر الكتاب أثنى صاحب الرحلة على جهود المملكة العربية السعودية في تنظيم الأمور الصحية ومكافحة الأمراض، والمؤلف خبير في المجال الطبي، ويدرك الفارق الكبير بين الخدمات الصحية المقدمة للحجاج قديمًا، ورآها وشاهدها بأم عينيه في تلك المرحلة.

ومع كل ذلك فإن هذا الكتاب بحكم معاصرته ومعايشته للأحداث التاريخية يمكن الأخذ منه إلى حد ما، وفي الوقت نفسه الرد عليه في كثير من أطروحاته، وهذه هي مهمة المؤرخ المتخصص الذي يستطيع أن يعتمد على المصدر الموثوق والوثيقة الرسمية التي تعطي الحقائق العلمية المجردة، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فقد وجد ضالته.